الاختيار الثوري

مجلة مغربية عربية

انفضاح الطابور الخامس داخل الحركة الاتحادية

مقدمات حول الإفلاس التاريخي للقيادات الإصلاحية المغامرة

ملامح عن ثورة ماء العينين

الجبهة الوطنية في الجمهورية العربية اليمنية

1983

2

ALIKHTIAR — ATHAOURI

option révolutionnaire

revue trimestrielle marocaine

1983 - N°2 - 8ème année - 10 F.

مقدمات

حول الافلاس التاريخي للقيادات الاصلاحية ـ المغامرة

مضى منذ أزيد من ربع قرن على الاستقلال الشكلي للمغرب، وهذا الاستقلال نفسه توج مرحلة طويلة من كفاح شعبنا ضد الغزو الاجنبي ومن أجل صيانة السيادة الوطنية وفرض سيادته وارادته. مرت كل هذه العقود من الزمن التي شاهدت تواكب أجيال وأجيال من المناضلين، ولا تزال بلادنا تعاني من هيمنة الاجنبي بشتى الاساليب والاشكال، بدءا بالاسلوب المباشر واحتلال الاراضي.. وصولا للهيمنة الثقافية والايديولوجية، ومرورا بالتبعية الاقتصادية والسياسية، ولا يزال شعبنا محروما من سيادته وحتى من حقه في المواطنة بمفهومها الكامل، معرضا للعسف والظلم وهضم حقوق الانسان، محروما من حقوقه الديموقراطية الحقة، كشعب راشد ناضج.. وبكلمة واحدة: لا تزال أهداف التحرير والديموقراطية مطروحة للانجاز كاملة غير مجزأة، بعد أن أجهضت الثورة الوطنية في منتصف الخمسينات، واستولى الحكم المطلق على كل السلطات من خلال انقلابه في بداية الستينات، وحرمت جماهيرنا الشعبية من قطف ثمار كفاحها الوطني المجيد والعريق، الفائض بالبطولات والتضحيات الجسام.

واذا ما اقتصرنا على فترة ما بعد الاستقلال الشكلي فقط، وقفنا مشدوهين أمام قافلة الشهداء الذين قدموا أرواحهم بسخاء، وأفواج السجناء

السياسيين مدنيين وعسكريين، واعداد المختطفين ومجهولي المصير، أى أمام التضحيات الجسام التي قدمها أبناء شعبنا في سبيل أهداف التحرير والديموقراطية، وأمام تنوع وغنى التجارب التي خاضوها ولا يزالون في سبيل نفس الاهداف.

وأمام الطول النسبي للحقبة الزمنية وضخامة وجسامة التضحيات، مقابل الهزالة النسبية للمكتسبات الملموسة وطنيا وديموقراطيا، يبرز سؤال مشروع يفرض نفسه: أين الخلل؟ ولماذا هذه النكسات المتكررة وكأننا نعيد نفس التجارب ونسقط في نفس الاخطاء؟ وما هي الاخطاء تحديدا وما طبيعتها: ظرفية ثانوية وقابلة للعلاج، أم عقيمة وقاتلة؟

لا ندعي امكانية الجواب عن هذا السؤال بما يستحق من العمق والشمولية، أى بتقص كامل للعوامل التاريخية، والاسباب الموضوعية والذاتية التي تحكمت في مسيرة الحركة الوطنية والتقدمية المغربية، لكننا نود التطرق الى عامل أكيد من عوامل النكسة والاجهاض ألا وهو طبيعة القيادة الاصلاحية المغامرة التي نصبت نفسها على رأس حركة التحرير الشعبية ببلادنا، مستعملة كل أنواع الانتهازية اليمينية واليسارية، وكل أساليب المناورة السياسية والمغامرة، لتحريف النضال عن مجراه الحقيقي وتصريف تضحيات المناضلين ومجهوداتهم المتواصلة، لا لشيء الا لتلبية أغراضها الذاتية الضيقة، جريا وراء سراب السلطة وبحكم تخلفها التاريخي عن طبيعة المرحلة ومستلزماتها.

اننا لا نطرح مسألة القيادة بشكل مبتور وبمعزل عن الظروف التاريخية والبنيات التحتية والفوقية التي أنتجتها، ولا بمعزل كذلك عن التناقضات الاجتماعية ومستوى وعي الجماهير الشعبية عامة، والقواعد المناضلة خاصة.. كما أننا لا نطرح مفهوم "القيادة" بالمعنى المشخص للكلمة، بل نعني بها أولا وقبل كل شيء خطا ايديولوجيا وممارسة سياسية يمارسها الاشخاص "القياديون" ويحاولون فرضها من فوق بذهنية معينة وبممارسة محددة.

الفرز الاول : افلاس القيادة البورجوازية الاصلاحية

من هذه الزاوية، سنكتفي بطرح بعض الملاحظات والتصنيفات الاولية كمقدمات في شرح وتحليل الافلاس التاريخي الذى آلت اليه القيادات التقليدية للحركة الوطنية المغربية، على أن تكون لنا عودة للموضوع في احدى الاعداد المقبلة.

لا بد من التذكير ضمن هذه المرحلة بالكفاحات البطولية والانتفاضات العارمة، في البوادى على الخصوص، التي خاضتها جماهيرنا الشعبية من جنوب البلاد الى شمالها، دفاعا عن سيادة الوطن، ومن أجل طرد الغزاة المستعمرين ـ التي تشكل ثورة البطل ابن عبد الكريم الخطابي ألمعها وأنضجها، من حيث الاساليب والمضمون معا ـ والتي لم تهدأ نسبيا الا في أواخر الثلاثينات، أى بعد مضي أزيد من عشرين سنة على توقيع عقد الحماية من طرف الملك عبد الحفيظ. ولم يتم هذا التوقف المؤقت للمد النضالي الوطني الشعبي الا بحكم عدم التكافؤ المفرط في القوى والوسائل ما بين الجماهير الثائرة من جهة، والتحالف الاستعماري الاقطاعي من جهة ثانية والذى لم يتوان في استعمال كل طاقاته وامكانياته العسكرية الحديثة المدمرة من أجل بلوغ أهدافه في الغزو والهيمنة.

وفي أعقاب توقف الكفاح الوطني المسلح هذا، شرعت الحركة الوطنية الاصلاحية في تأسيس نفسها وتكوين تيارها السياسي انطلاقا من المدن على الخصوص، فشكلت وثيقة ١٩٤٤ الشهيرة تتويجا لمرحلة التأسيس هذه، والتي جرت ضمن محددات أساسية سيكون لها أعمق الاثار على مسيرة الحركة الوطنية عامة، وهي:

ـ الطبيعة الاصلاحية للحركة، اعتمادا على الفكر السلفي في حلته المغربية، وفي غياب أى برنامج واضح ومحدد لتحرير المجتمع وبنائه..

ـ القيادة للبورجوازية الوطنية أساسا، رغم تواجد عناصر منحدرة من الاوساط الشعبية، كأقلية.

ـ تحالف هذه القيادات مع النظام "المحمي" منذ الانطلاق، واخضاع كل الخطوات والممارسات لخدمة مصلحة هذا التحالف...

والجدير بالذكر أن التحالف بين القصر و"الزعماء" الوطنيين لم يكن تحالفا تاكتيكيا خططت له القيادة الاصلاحية أو مارسته بشكل ظرفي لبلوغ مكاسب وأهداف مرحلية، لا بل أنها ارتقت به الى المستوى الاستراتيجي الذى لا ترى خارجه امكانية خوض أى نضال وطني، انطلاقا من تصورها الوهمي الخاطيء على أن هناك انفصاما بين النظام المخزني وقاعدته الاقطاعية المتحالفة مع الاستعمار بشكل مكشوف.

ان التوهم على أن هناك اقطاعية عميلة وأخرى وطنية، هو الذى جعل "الزعماء" يربطون مصير الحركة الوطنية بكاملها بمصير نفس النظام المخزني الذى أدخل الاستعمار للبلاد عن طريق عقد الحماية اللئيم، وذلك بدون أدنى

بصيص من الاستقلالية في الخط الوطني، بل ومع تسليم زمام القيادة للمخزن خلال مراحل أساسية ومنعطفات حاسمة في مسيرة الحركة الوطنية عامة.

ان هذا التحالف الفوقي هو الذى طبع سلوك القيادة الاصلاحية وتحكم في الاطروحات والشعارات والوسائل النضالية التي طرحتها على الجماهير، وهو الذى يفسر لنا منهجيتها التي حاولت عن طريقها تطويق أى مد جماهيرى وطني ثورى، كما يتجلى ذلك في ثلاثة محاور أساسية في ممارستها السياسية:

١ ـ التشبث بـ"الاصلاحات الديموقراطية" داخل النظام المخزني ـ الاستعمارى و"النضال السلمي" كوسيلة وحيدة لا ثانية لها، والتنكر العلني لاية وسيلة أخرى ومعاداتها.

٢ ـ تغييب البرنامج الوطني الواضح وتغذية الجماهير بالاساطير والخرافات، عن طريق وسائل التغليط والدعاية الواسعة النطاق ("محمد الخامس في القمر"، "الفوسفاط وحده سيوفر أجرة بدون عمل لكل المغاربة"...الخ).

٣ ـ استغلال الكفاح الجماهيرى العارم، وتوظيفه لصالح التمهيد للمفاوضات الفوقية و"فتح النافذة" للاستعمار الجديد.

واذا كانت القيادة الاصلاحية قد تمكنت في مرحلة الانطلاق من فرض محور عملها الاول، أى الاكتفاء بالمطالب الاصلاحية "السلمية"، فان التحول النوعي الحاسم الذى جرى في صفوف أوسع قواعد الحركة الوطنية كان نتيجة انخراط أفواج العمال والفلاحين فيها بموازاة تصعيد وتيرة هجرة البوادى وازدياد حجم الطبقة العاملة.. ان هذا التحول في القاعدة الاجتماعية للحركة الوطنية سيفرض الانتقال الى أشكال أعلى وأرقى من أشكال النضال، بدءا بالعمل النقابي الموجه ضد الرأسمال الاستعمارى بشكل منظم وصائب، وصولا الى الكفاح المسلح في المدن والبوادى، ومرورا بالتعبئة الجماهيرية الواسعة في أعمال الاحتجاج والمقاومة السياسية.

ان هذه الاشكال النضالية كلها فرضت نفسها على القيادة الاصلاحية فرضا ـ وحتى الخلايا الاولى للمقاومة المسلحة نظمت خفية عن مسؤولي حزب الاستقلال وضداعلى قراراتهم ـ ولم يبق أمامها من سلوك سوى محاولة احتواء النضال الثورى، ومسايرته، بهدف توظيفه لصالح المحورين: الثاني والثالث، أى محاولة افراغه من أى محتوى موضوعي وتغليف أهدافه بضبابية الاساطير والخرافات، مع وضع مصلحة المخزن فوق كل الاعتبارات بما فيها السيادة الوطنية وسيادة الشعب، وتمهيد الطريق للمفاوضات التخاذلية مع الاستعمار الجديد.

ضمن هذه الشروط تم اجهاض الثورة الوطنية في منتصف الخمسينات ـ مفاوضات ايكس ليبان ـ وتوقيف مدها، وتحريفه الى ميادين المساومات في النطاق المغلق، كما تعرض لذلك باسهاب الشهيد المهدى بن بركة في نقده الذاتي للحركة الوطنية والاخطاء الثلاث التي ألحقت بها بالغ الاضرار.

وكانت الترجمة المباشرة لهذا الاجهاض، هو تعريض الشعب المغربي للنهب والاستغلال، ومنعه من قطف ثمار كفاحه الطويل المرير، بل الحيلولة دون تمكنه من مواصلة مسيرة التحرير في الجنوب على الخصوص، وضرب هذه المسيرة بوسائل العنف والاكراه وبتواطؤ مكشوف بين الاستعمار والاقطاعية التي وحدت صفوفها وتجاوزت خلافاتها الداخلية الظرفية الثانوية، وراء قيادة النظام التبعي.

الا أن خيبة الامل هذه، سرعان ما أحدثت ردة فعل جماهيرية واسعة، ترجمت بنقلة نوعية في وعي القواعد المناضلة التي انكشف أمامها بشكل ملموس تخاذل القيادة البورجوازية الاصلاحية التي سقطت وتبخرت خرافاتها وأساطيرها على أرضية واقع الاستغلال والتبعية، والاستعمار في حلته الجديدة.

وهذا هو المغزى العميق لقيام الاتحاد الوطني للقوات الشعبية الذى وضع على عاتقه أول ما وضع: تقويم الانحراف الاصلاحي للبورجوازية ومواصلة النضال من أجل استكمال السيادة الوطنية والتحرير، مترجما بذلك الانفصام العميق الذى تم بين القيادة البورجوازية وأوسع فئات الشعب التي أدركت أن أهداف نضالها قد سرقت منها وفطنت لضرورة احداث الفرز الاول لجزء من القيادة المسؤولة عن التحالف المبهم مع الاقطاعية ونظامها المخزني، وعن مؤامرة افراغ الاستقلال من مضمونه الحقيقي وتركه مجرد استقلال شكلي يبقي على هيمنة الاستعمار في كل المستويات الاقتصادية والسياسية والثقافية... وهذا الفرز الاول ما هو الا نتيجة طبيعية لافلاس القيادة البورجوازية وقصورها، وعجزها التاريخي عن قيادة مرحلة الكفاح الوطني المعادى للاستعمار وحليفته الاقطاعية والبورجوازية الكومبرادورية، بل واستعدادها للخضوع لهيمنة هذا الحلف والاندماج فيه لا حقا بشكل من الاشكال...

الا أن هذا الفرز الاول لم يتم على أساس من الوضوح الكامل، أى بمقتضى برنامج محدد وتنظيم طلائعي وقيادة منسجمة، بل أن سمته الاساسية كانت هي العفوية الجماهيرية والانتفاضة القاعدية العارمة، الشيء الذى ترك الباب مفتوحا واسعا لهيمنة العناصر البورجوازية الصغيرة ذات التوجهات الاصلاحية ـ المغامرة على قيادة هذه الحركة التصحيحية التي انخرطت فيها

"القوات الشعبية" بشكل واسع من عمال ونقابتهم، وفلاحين فقراء ومتوسطين، ومقاومين في المدن وتنظيماتهم، وجنود وضباط جيش التحرير في الشمال والجنوب...

الفرز الثاني: افلاس القيادة البورجوازية الصغيرة الاصلاحية ـ المغامرة

وباختصار شديد، فان الفرز الاول أعطى امكانية قيام حزب جماهيرى وطني تحررى ذى آفاق اشتراكية تقريبية، قواعده متجذرة في الطبقة العاملة والطبقات الشعبية عامة، وقيادته مخضرمة مختلطة تتيه من الطرح الليبرالي المحض الى أطروحات "التغيير الجذرى" المناهضة للهياكل الاستعمارية والشبه اقطاعية القائمة. وسيكون من الخطأ المنهجي محاولة تقييم أو نقد هذه الحركة التصحيحية العارمة بنفس المنهج الذى يمكن أن نتناول به تقييم تجربة حزب طبقي، بخطه الايديولوجي الواضح وبرنامجه السياسي المرحلي وهياكله التنظيمية المضبوطة ... الخ.

ان هذه الحركة التصحيحية التحررية التي انضوت تحت لواء "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية"، بالرغم من نواقصها السياسية وبغض النظر عن تنوع وتفكك هياكلها، هي التي قادت فعلا الكفاح السياسي في المرحلة الاولى من الاستقلال الشكلي ضد هيمنة الحكم المطلق ومن أجل التحرر والديموقراطية، وشكلت العمود الفقرى للحركة التقدمية المغربية التي عبأت واستقطبت لاهدافها الفئات الاكثر وعيا واستعدادا للنضال من بين جماهيرنا الشعبية الكادحة.

ولا يسع المجال هنا للتعرض للنضالات والتحركات الجماهيرية الواسعة، ومختلف التجارب التي خاضتها الحركة الاتحادية... سنكتفي اذن بالاشارة الى أهم المراحل ضمن هذه التجارب السلمية منها وغير السلمية، الاصلاحية أو الجذرية، مركزين على تبيان دور القواعد الاتحادية من جهة، والادوار التي لعبتها العناصر القيادية من جهة ثانية، موضوع عرضنا السريع هذا.

ويمكن بكل ايجاز وتركيز، رسم ثلاث مراحل أساسية ضمن مسيرة الاتحاد الطويلة والغنية ـ التي امتدت حقبة تناهز الربع قرن ـ وهي:

ـ مرحلة الكفاح الوطني التحررى العارم ضد استمرار الوجود الاستعمارى المباشر، في شكل احتلال للاراضي شمالا وجنوبا، وقواعد عسكرية فرنسية وأمريكية، ومعمرين مسيطرين على الاراضي الزراعية، وهيمنة سياسية وثقافية.. الخ

ـ مرحلة الربط بين الكفاح الوطني والنضال الديموقراطي (٦٠ ـ ١٩٦٥)

مع تبني البديل الاشتراكي (ولو في شكل تقريبي متذبذب)، كما جسدته مقررات المؤتمر الثاني لسنة ١٩٦٢. وشهدت هذه المرحلة فعلا نضالا ديموقراطيا واسع النطاق، وسط الجماهير وبمساهمتها الفعالة بقيادة مناضلين ثوريين من أمثال الشهيد المهدى بن بركة، وانتهت باغتياله شخصيا واغتيال واعتقال العديد من رفاقه المناضلين. هذه المرحلة رأت الحزب يربط الربط الجدلي اللازم بين النضال التحررى والنضال ضد الرجعية المحلية حليفة الاستعمار وممثلها النظام القائم، كطريق وحيد لتحقيق الديموقراطية وفتح آفاق البناء الاشتراكي.

ـ مرحلة المناورات السياسية والمغامرات المبهمة التي توجه من أعلى بموازاة مع المحاولات التنظيمية الجادة التي تخوضها القواعد المناضلة وفي ازدواجية معها، بل وضربا واجهاضا لها من حيث النتائج الملموسة على الساحة. هذه المحاولات الاصلاحية ـ المغامرة القيادية تواكبت في شكل حلقة مفرغة طوال هذه الحقبة كلها، أى عمليا منذ انتفاضة الدار البيضاء لسنة ١٩٦٥، الى شهر ماى ١٩٨٣، تخللتها مراحل من المد والجزر في النضال الاتحادى، والتوضيح والفرز التدريجي في تناقضاته الداخلية وطبيعة قيادته، بدءا بانخراط هذه الاخيرة في الاجماع مع الحكم سنة ١٩٧٤، وصولا الى ارتمائها الكامل في أحضانه من موقع الخيانة والعمالة، ومرورا بالمحاولات المغامرة التي عانت من الضعف والعزلة في الفترة الاخيرة، نتيجة تجذر الوعي الاتحادى وتعمقه، وظلت في حالة من الاجترار والموت البطيء، الى أن انكشف أمرها بشكل نهائي مع بداية نفس السنة ١٩٨٣... وهذه هي العناصر الاساسية في الفرز الثاني الذى جسد افلاس "الزعماء" التقليديين الاصلاحيين ـ المغامرين، وبروز البديل التقدمي المتكامل ايديولوجيا وسياسيا. هذا الفرز الذى يحق بنا الوقوف عنده لتبيان نتائجه الهامة وبحث دواليب صيرورته الطويلة والغنية، وبالتالي أبعاده التاريخية، سلبا وايجابا، أى حكما على الماضي وأخطائه ونواقصه البنيوية، وتثمينا للحاضر ومكتسباته التي نيلت بفضل كفاح المناضلين وتضحياتهم الجسام، وحنكتهم الثورية العالية.

الاصلاح والمغامرة: وجهان لنفس العملة

ان التمعن في الاخطاء والنكسات التي تعرضت لها المسيرة النضالية الاتحادية، يبرز لنا أول ما يبرز ظاهرتين متزامنتين ومرتبطتين:

ـ ان مسؤولية هذه النكسات تقع على عاتق القيادة التي كانت تخطط

وتقرر بخلفيات وخطة خفية، مستعملة المناضلين القاعديين وتنظيماتهم كمجرد أداة تاكتيكية، بشكل يعطي صورة واضحة عن الانفصام الغريب بين قاعدة تمارس وتناضل يوميا سياسيا وجماهيريا وتقدم التضحيات تلو التضحيات من أجل أهداف الحزب وبرنامجه ـ وكأنها في واد معزول ـ وتفاجأ كل مرة بعواقب مغامرات القيادة الخفية، السياسية منها والانقلابية...

ـ ان المحاولات السياسية الاصلاحية، والاخرى المغامرة "الجذرية" تظهر في شكلها الخارجي على أنها مختلفة أو متناقضة، أو على أن هناك أجنحة داخل القيادة، بعضها سياسي تاكتيكي، والاخر مكلف بـ"العمل الصحيح".

الحقيقة أن كل المناورات السياسية التي خاضتها القيادة هي من مسؤوليتها ككل، وكذلك الشأن بالنسبة للمحاولات المغامرة، فلا الصنف الاول من الممارسات السلبية ولا الثاني تم دائما طوال التجربة باتفاق جميع عناصر القيادة، وليس هناك لا من موقف ولا ممارسة مغايرة يثبت العكس. صحيح أن فشل كل تجربة من التجارب يؤدي الى جو من الخلافات والمؤاخذات المتبادلة فيما بين هذه العناصر، ومحاولات التنصل من المسؤولية والصاق التهم بالغير.. الا أننا من خلال استعراض لائحة المناورات السياسية الاصلاحية ـ المغامرة الموجهة لضرب النضال الصادق والمنضبط للقواعد المناضلة خاصة وتأخير النضال الديموقراطي عامة، لا نجد أي موقف ولا ممارسة متميزة بين مختلف عناصر القيادة التي يصنفها البعض أحيانا "كعناصر معتدلة اصلاحية" من جهة و"عناصر العمل الصحيح" من جهة ثانية.

ان لدينا اليوم ما يكفي من الحقائق والمستندات لنؤكد أن هذا التصنيف لا أساس له من الصحة، وحتى اذا ما وجدت بعض التمايزات بين العناصر القيادية التقليدية، من حيث التكوين والتجربة والمواقع، فانها كما أسلفنا خططت بشكل جماعي طوال هذه الحقبة، وخاضت تجاربها الاصلاحية ـ المغامرة باتفاق وانسجام، اذا ما استثنينا الخلافات في الشكل والاساليب:

ـ المشاركة في الحكومة سنة ١٩٦٠، والسقوط في لعبة الحكم وتزكية مخططه القمعي الموجه ضد جيش التحرير خاصة، والرامي الى استغلال الفرصة لتثبيت وترسيخ أدوات الحكم المطلق.

ـ المؤتمر الثاني للحزب وما رافقه من غموض ومساومات فوقية على حساب الاختيار الثوري للحزب.

ـ ضرب النضال الاتحادي المتجذر ومحاولاته التنظيمية السليمة عن طريق مغامرة ١٩٦٣...

ـ المفاوضات مع الحكم سنة ١٩٦٥ في خفية على المناضلين وعلى حساب الانتفاضة الشعبية نفسها.

ـ الوحدة الفوقية مع البيروقراطية النقابية (١٩٦٧) على حساب التنظيمات الحزبية والنقابية على حد سواء.

ـ ضرب محاولة اعادة بناء الخلايا الحزبية على أسس سليمة عن طريق نفس الاساليب الاصلاحية المغامرة (١٩٦٩) وتحمل المسؤولية الاولى والاخيرة في فشل التجربة وتعرضها للقمع والاجهاض.

ـ مباغتة المناضلين بـ"الكتلة الوطنية" كاتفاق انتخابي فوقي (١٩٧٠).

ـ يلي ذلك سلسلة من "المفاوضات" والمناورات السياسية مع الحكم حول دساتيره الممنوحة ووعوده الكاذبة بالانتخابات والديموقراطية (طوال سنة ٧٠ و٧١ و ١٩٧٢).

ـ اجهاض المجهودات التنظيمية الجبارة التي دشنت بعد ٣٠ يوليوز، بنفس الاسلوب الاصلاحي ـ المغامر، ومنع هذه المجهودات من بلوغ أهدافها وطموحاتها في خوض تجربة ثورية أصيلة، عن طريق التخطيطات الفوقية المغامرة في خفية عن المناضلين القاعديين، الشيء الذي أدى مرة أخرى الى اجهاض التجربة وتمكين جهاز القمع الذي استفاد من الممارسات الفوقية المذكورة لتوجيه ضربات قاصمة للتنظيمات الحزبية (١٩٧٣)...

نعود ونؤكد اذن، أن مسؤولية كل هذه النكسات تقع على عاتق القيادة بكل عناصرها، وبدون استثناء، وذلك بالرغم من بروز خلاف ظاهري ذاتي بعد فشل تجربة ١٩٧٣ ـ اتضح أنه يتعلق فقط بعملية تصفية حسابات، وليس نهائيا بنقد ذاتي صادق، وتغيير حقيقي في الموقف والممارسة ـ فالاتصالات والعلاقات والتخطيطات المشتركة استمرت حتى بعد ذلك، "على ظهر" المناضلين مرة أخرى.. وهكذا تصدر جزء من القيادة للواجهة الاصلاحية كعادته من خلال دخوله تجربة "الاجماع" وصولا الى الكشف عن موقعه الخياني العميل بشكل واضح.. واستمر جزء من القيادة متسترا وراء التوجهات الثورية الصادقة للمناضلين مستعملا كدحهم النضالي وعطاءاتهم وتضحياتهم في محاولة جديدة لبناء "قمم من الزعامات الفارغة والمتسلطة" وموهما المناضلين والرأي العام بالاتفاق مع الخط الثوري وكل ما يصدر عنه من نقد ذاتي للتجربة ومواقف سياسية وممارسة سياسية وجماهيرية، في حين أنه ظل محافظا على علاقته بالجزء الاخر من القيادة، متشبثا بنفس الاطروحات الاصلاحية ـ المغامرة، غير قابل لاية امكانية في التطور واستيعاب متطلبات المرحلة الجديدة.

الحقيقة أن ما يجعل الاصلاح والمغامرة مجرد وجهين لنفس العملة، هو زيادة على التقائهما في الممارسة العملية وتخطيطاتهما الجماعية، التقائهما الايديولوجي وانتمائهما الطبقي البورجوازى الصغير الذى يحدد جوهر التوجه الاصلاحي المغامر وممارساته. وبهذا الصدد، فان الحركة الاتحادية لم تعرف هيمنة هذا النوع من التوجه والممارسة بشكل شاذ، بل ان العديد من التجارب الثورية شهدت بروز نفس الظاهرة في مرحلة من مراحل تطورها، قبل أن يتمكن خط الطبقة العاملة والجماهير الكادحة من بلوغ النضج، والقوة الكافية لهزمها وازاحتها.

والانتهازية هي طبعا من الخصائص البارزة للبورجوازية الصغيرة وفئتها العليا تحديدا. والدافع الانتهازى والقصور الطبقي هما العاملان الاساسيان اللذان يجعلان البورجوازية الصغيرة تستخف بنضال الجماهير وتخشاه في نفس الوقت، ومن ثم فانها تسعى الى احتوائه واستعماله لخدمة أغراضها الذاتية الانانية: الوصول الى السلطة بأى طريقة كانت وبأقصى ما يمكن من السرعة وهذان العاملان هما اللذان يفسران لنا كيف أن نفس العناصر "القيادية" تقفز من موقف الى آخر، حسب الظروف والمصلحة: من المناورة السياسة الى المغامرة، تارة حسب توزيع للادوار بشكل متفق عليه، وأخرى بشكل جماعي، وكيف أتلفت المجهودات القاعدية الثمينة والتضحيات الجسام للمناضلين الشهداء والاحياء، واستخفت بنضال جيلين كاملين، وأخرت مسيرة الحركة التقدمية وألحقت بها أكبر الاضرار... هذه الاضرار والخسارات البالغة تكررت ضمن حلقة مفرغة دامت ربع قرن، وتحت نفس الاساليب والاشكال التي لاتتغير الا في تفاصيلها تأثرا بالظرف المحيط بها، ورغم ذلك فان القيادة الاصلاحية ـ المغامرة لم تستفد من تجربتها حتى من زاوية مصلحتها الذاتية هي نفسها.. بل استمرت في نهج المناورة والانتهازية بشتى أصنافها، والدس والمؤامرات الموجهة ضد المناضلين، الشيء الذى يضفي على ممارساتها هاته صبغة "اصرار مسبق" ويوضح أن دورها التخريبي يفوق خطورة وفداحة، دور البورجوازية نفسها التي تم الحسم معها من خلال الفرز الاول. فاذا كانت البورجوازية قد تحركت بنوع من الوفاء لموقعها الاجتماعي وعبرت عن عجز "طبيعي" على قيادة مرحلة الكفاح الوطني حتى بلوغ أهدافه الكاملة، وتقهقرت نتيجة ذلك، وبسرعة نسبية، الى مواقع تراجعية واضحة، فان القيادة الاصلاحية ـ المغامرة لعبت دورا تخريبيا أكثر خبثا وخطورة لانها تصدت لهذا الدور تحت تغطية النضال وباسمه ومن موقعه، ولانها مارست مناوراتها ومؤامراتها وكررتها عن سابق اصرار ومعرفة... والحقيقة أن المجازفة

بأرواح المناضلين والتلاعب بالمبادئ والمكتسبات السياسية والتنظيمية، كلها ممارسات متساوية في الخبث والدناءة ـ وتستحق محاكمة شعبية حقيقية لمحاسبة الاصلاحيين ـ المغامرين محاسبة صارمة ـ واذا كانت ممارستها السياسية الاصلاحية محدودة الاثار ومكشوفة للساحة عامة، فيسهل بالتالي استيعابها والتصدى اليها، فان ممارستها المغامرة المكملة، باسم الثورة والنضال الجذرى، هي الاكثر خطورة على الاطلاق، بحيث يستعصي الكشف عنها وعزلها لاول وهلة لانها تستعمل أسلوب اختزال المعرفة والمعطيات باسم "السرية" و"الاحتياط"، ولانها توهم المناضلين بالاتفاق مع قناعاتهم واقبالها على التطور والتثوير، في حين أنها لا تخدم سوى نفس التوجه البورجوازى الصغير الذى يستخف بقدرات الجماهير الشعبية وامكانياتها في احداث التغيير الحقيقي، وينصب نفسه فوقيا نائبا عنها، في صورة "بطل" قادر على حسم الموقف من فوق وبسرعة، في حين أن النتيجة الملموسة تكون دائما بحكم هذه الممارسة: تأخير تلو تأخير في المسيرة النضالية، ليس الا...

البعد التاريخي لافلاس الاصلاحيين ـ المغامرين

تناولنا في بداية هذا العرض، السؤال المشروع المطروح لدى الرأى العام المغربي والعربي والاجنبي على حد سواء: لما ذا هذا التفاوت بين التضحيات الجسام وطول وتعدد التجارب لدى الحركة الاتحادية، وبين المكاسب السياسية الضئيلة نسبيا التي حققتها؟

ومن خلال استعراض سريع للادوار التي لعبتها القيادة الاصلاحية ـ المغامرة تبين لنا أن ممارساتها هاته شكلت عاملا من العوامل الاساسية التي أدت الى العديد من النكسات والكبوات، الى جانب العوامل الموضوعية والذاتية الاخرى المتعلقة بتبلور الصراع الطبقي ووضوحه، ومستوى الوعي الثورى والقدرة التنظيمية لدى القواعد الاتحادية نفسها.

والجدير بالذكر أن هذا النوع من "القيادات" لم يأت بشكل منزل أو غريب على مجتمعنا، بل انه في نهاية التحليل مجرد افراز طبيعي للهياكل والبنيات السائدة ببلادنا: فهيمنة الايديولوجية الاقطاعية على البنيات الفوقية أزيد من خمسة قرون، كان من الطبيعي أن تخلف آثارها على كل المستويات، بما في ذلك التسرب الى داخل الحركة الوطنية والتقدمية والتأثير المباشر في سلوك وذهنية وتصرفات أولئك الذين ليس من عقيدة صلبة ولا من قناعات

ايديولوجية ثابتة، تحميهم وترشد خطاهم، نقصد "الزعماء" الاصلاحيين ـ المغامرين الطامعين الى احتلال مكانة الحكم بغض النظر عن الطريق الذى يؤدى الى تلك المكانة مستخفين وضاربين عرض الحائط ليس المبادئ والخط السياسي وحسب، بل حتى الاخلاق وقيمة الانسان وحياته نفسها...

ومن الطبيعي أيضا أن يرافق هذا الافلاس التاريخي "للزعماء" التقليديين، ولفظهم النهائي من صفوف الوطنيين والثوريين، نضج مضطرد في التناقض الاساسي القائم بين الحفنة الاقطاعية ـ الرأسمالية من جهة، وأوسع الجماهير الشعبية من جهة ثانية، وارتفاع ملموس في وعي تلك الجماهير التي أصبحت تضع كل البنيات القديمة في الميزان، وتخوض النضالات الواسعة المكتملة مطلبيا وسياسيا وثقافيا... وبالتالي فان فرز القيادات الاصلاحية المغامرة والحسم معها ما هو الا مؤشر طلائعي مبكر عن صيرورة الفرز العامة السائرة ببلادنا، والتي تعمق وتوسع هوة التناقض الاساسي، وتفسح المجال لتسلح كل الكادحين بسلاحهم العتيد من أجل خوض معركتهم الحاسمة: سلاح النظرية الثورية الوحيدة، نظرية الاشتراكية العلمية...

وهنا تكمن الاهمية التاريخية القصوى لانكشاف الزعامات المتسلطة التي سقط قناعها بفعل محك الساحة السياسية نفسها، وبفضل الصراع الايديولوجي والسياسي الصارم والديموقراطي في نفس الوقت الذى خاضه المناضلون الثوريون ضد كل أنواع الانحراف والانتهاز اليميني منه واليسارى. ان هذا الصراع الطويل النفس هو الذى يسمح اليوم باقبار "الزعامات" الى الابد، ونبذ "القيادات" المتسلطة بشكل نهائي، وافساح المجال لتبلور الخط الايديولوجي الواضح والبرنامج السياسي المحدد، وهما اللذان يشكلان القيادة الحقيقية، واللذان يلتزم وينضبط اليهما المسؤولون باعتبار أن المسؤولية هي مجرد تكليف لا تشريف...

وانه فعلا لمكسب ثمين وغاية سامية حققها كفاح الاتحاديين، بما فيهم أولئك الشهداء الذين لم تذهب تضحياتهم سدى، اذ أنها ساهمت بشكل أساسي في تحقيق هذا المكسب، وفسحت المجال لوضوح الرؤيا حول بناء الاداة الثورية الضرورية لتحقيق الاهداف النبيلة التي ضحى من أجلها هؤلاء الشهداء.

ومما يضفي على هذا المكسب بعدا تاريخيا أيضا، كونه لم يأت بمعزل عن مجريات الاحداث وتطوراتها على الساحة العربية خاصة، وما تعرفه هذه الساحة من فرز مشابه يعزل ويهمش القيادات البورجوازية الصغيرة الهشة، أيا كان موقعها ـ داخل السلطة أو خارجها ـ بل انه ينسجم مع التطورات التي

تشهدها الساحة الدولية، ويجيب على متطلبات العصر ومستلزماته: عصر انعتاق الشعوب وتحررها وانهائها لكل أشكال الاستعمار والهيمنة والتبعية وبناء مجتمعاتها العادلة.

*